أمالي ألسنية : ٥

اصل كلمة الفصح وابن بشكوال

بقلم الاب مرمرجي الدومنيكي
من اساتذة المعهد الكتابي والاثري الفرنسي في القدس الشريف

القسم الثاني : ابن بشكوال والفصح

١

رأي بغدادي

اما الآن ، بعد ان اشبعنا الكلام في المسألة الاصلية ، فلنأت الى المسألة الثانوية ، وهي مسألة اسم بشكوال وعلاقته بكلمة الفصح . وان اردت ان تعرف من هو ، وما غايتنا من البحث عن اصل اسمه ، فما لك الّا ان تقرأ ما يأتي . ننقله لك مقتضباً من مقالة نُشرت في احدى المجلّات البغدادية عنوانها «فضل العربية على سائر اللغات» تجلّ صاحبها الاثبات بان اصل كثير من الكلم الآرية عربي . فدونك ما يهمنا بحرفه ، وان طال :

« ومن غريب الأمر ان مثل هذا التغيير وقع بعد الاسلام وفي ابان ازدهار الآداب العربية . فاخذ السلف عن الاندلسيين الاجانب الفاظاً بصورها الاعجمية ، في حين كانوا في غنى عنها ، « لان ما اقتبسوه من اولائك الاقوام من المفردات هو « عربي النجار » « ونحن نضرب لك مثلاً واحداً تقيس عليه ما جاء من هذا القبيل »

« وبين ادباء المائة السادسة للهجرة رجل عربي محض الدم . هو ابو القاسم ابن بشكوال . . . كان من علماء الاندلس الكبار ، وله التآليف الجليلة المفيدة . . . ولم اجد من بحث عن اصل هذه الكلمة . والذي عندي ان اللفظة بهذه الصورة اسبانية ، اندلسية ، اعجمية . « وهي تصحيف الفصحي » (احفظ هذا ايها القارئ) وبين الاسمين فرق في اللفظ لا يمكن ان ينكر . اما كيف انه صار «الفصحي بشكوال » فتقول : ان الافرنج نقلوا الكلمة الى لسانهم بعدة صور ، منها Pascua, Pascha . فتحلت الفاء العربية الى حرف p ، والصاد

الى s ، والخاء الى c او ch . ولما نسبوا الى الفصح الفرنجية قالوا Paschalis ، والاسبانيون قالوا Pascua . ولما كان الاسبانيون والعرب الاندلسيون في العصور الوسطى يلفظون بعض الاحيان السين شيناً . صارت « الفصحي بشكوال » وهو امر في منتهى الغرابة ، لعدم وجود ادنى مجانسة بين الكلمتين . ومع ذلك لا يمكن لاي كان ان ينكر هذه الحقيقة لوضوحها . هذا ولم نرَ احداً صرّح بهذا الاصل ، سواء كان من ابناء لغتنا او من ابناء الغرب .

« والنصارى يسمّون « بشكوال » او ان شئت فقل « فصحي » من يولد من ابنائهم في زمن الفصح . وهكذا اشتهر عندنا كثير من الائمة باسم « بشكوال » اي « الفصحي » منهم القديس بشكوال الاول البابا المتوفى في سنة ٨٢٤م (١١٠٩ه) (كذا) والقديس بشكوال يلون المولود سنة ١٠٥٠م (٩٤٧ه) والمتوفى ١٠٩٣م (١٠٠١ه) فبشكوال اسم نصراني بحت ، وابن بشكوال مسلم عربي بحت . فكيف تسمّى مسلم باسم مسيحي صرف ؟ نظن ان الاسم شاع في الاندلس شيوعاً عظيماً ، فسمّه المسلمون وسمّوا به اولادهم من غير ان ينظروا الى معناه . ومثل هذه التسمية كثير . واذا علمت ان نظائر هذه التغييرات جمة لا تحصى ورد مثلها قبل الاسلام وبعده تحققت ان اسرار اللغات من ادقّ الامور بحثاً واستقصاء . » (انتهى) (١

٢

دحض واثبات

ان المجلة البغدادية لاشهر من نار على علم باسلوب خاص بها في ميدان الجدال . ونحن نقرّ بعجزنا ، من حيث الطبع والذوق والمقام ، عن مناوأتها في مثل هذا المضمار . ولذا ، فبدون تأثر بفعل الهوى ، لا بل ببرودة انكليزية ، نجترئ بنقد القول ودحضه ، غاضين النظر عن القائل ، لان الحقيقة العلمية ضالتنا ليس الّا ، فنقول :

ان ما وقفت عليه ، ايها القارئ اللبيب ، من الحقائق المتعدّدة ، في القسم الاول من هذا المقال ، لكافٍ لان يعلمك ان اغلب ما تضمنته هذه الفقرة المقتضبة من المجلة المذكورة لقائم على جرف هار . وها نحن اولاء نزيدك اثباتاً :

١ — نسلّم باحتمالية تسمية رجل مسلم باسم نصراني ، او رجل عربي باسم اعجمي ، والعكس بالعكس . فهذا جارٍ في عصرنا كما قد جرى في كل

(١ « مجلة لغة العرب » جزء ٨ سنة ٧ ص ٦٠١ و ٦٠٢

العصور ، وعند كل الامم . « فقد سمّى بعض النصارى ، في جزيرة العرب باسماء وثنية ، ونسي معناها الاصلي ، كعبد المدان ، ومنهم بنو عبد المدان النصارى في نجران . وعبد القيس ، ومنهم بنو عبد القيس النصارى . والسريان والرومانيون واليونانيون النصارى جروا على هذا المجرى ، فسموا : مركوريوس ، وباخوس ، وديونوسيوس . ولكن هذه الاسماء كانت قد فقدت بالاستعمال معانيها الوثنية . وقد استعمل بعض الاسماء مترجمةً عن لغاتها الاصلية ، منها بحيرة وصخر ، من السريانية Bhira و Kêpa ، وبعيث من اليونانية Anastas . وتُرجم من اللاتينية : ثابت : Constans ؛ خالدة : Perpetua ؛ سعد : Felix ؛ صالح : Pius »[1].

ولم يقل احد بان هذه الاسماء ، وان اخذها العرب عن الاجانب ، فهي « عربية النجار » كما ادّعى الرأي البغدادي بان بشكوال ، وان أُخذ عن الاسبانية ، فهو « عربي النجار » ، وان من ذلك امثالًا كثيرة .

٢ ــ على فرض ان « بشكوال » مصحّفة عن « فصحي » فمتى جرى ذلك وكيف ؟ يجب ان يكون الاسبانيون المسيحيون قد تلقوها عن العرب . والحال ان العرب لم يبدخلوا الاندلس الّا بعد العقد الاول من القرن الثامن ؛ ولم يتوغلوا في البلاد الى فرنسة ، الا نحو سنة ٧٣٢ ، حين كسرهم وشتت شملهم شارل مارتل ؛ ولم يزهُ لهم الملك الّا بعد تسلُّط الامويّين وانشائهم هناك الخلافة التي زالت من يدهم في الشرق ، اي منذ حكم عبد الرحمان الاول ، في غضون القسم الثاني من القرن الثامن[2] . على اننا نجد اسم « بشكوال » او بالاحرى Paschalis شائعاً في الغرب منذ اواسط القرن السابع ؛ لان اسم مدّعي البابوية Paschalis مات سنة ٦٩٤م كما علمت مما سبق في القسم الاول . فلا بد انه ولد قبل نصف القرن المذكور ؛ ولا ريب ايضاً انه لم يكن اول

---

١) شيخو : النصرانية وآدابها الخ ، ص ٢٢٨

٢) Huart : *His. des Arabes, T. II, chap. XXIII*

من تسمّى بهذا الاسم. فاذن لم يدخل « اسم بشكوال — محرّفاً عن « فصحي » ام غير محرف — الى الاندلس او غيرها من البلاد الاوربية ، على «يد العرب». بل كان مستعملاً فيها قبل حلولهم بزمن طويل . هذا فضلاً عما هناك من القرابة ؛ اذ ان اسم بشكوال ، او اصله المزعوم ، « فصحي » نصراني ، والعرب الذين فتحوا الاندلس كانوا مسلمين ، وفي عصر تعصبهم وكرههم للنصرانية . فمن اين شاع بينهم هذا الاسم الممقوت في نظرهم ؟

٣ً — ان الاسماء تنقل من لغة الى لغة ، او من قوم الى قوم ، اما بلفظها الاصلي ، مع مراعاة التحريف اذا اقتضى الحال ، واما مترجمةً . وينبغي ان تكون مستعملة في اللغة المنقولة عنها كاسماء علم . فاننا اليوم نسمي كثيراً باسماء اجنبية ، لكننا لا نتخذها بين اسماء الجنس في اللغة العربية ، بل بين اسماء العَلَم ، فلا نسمي مثلاً boiteux او long او petit ، كانها اسماء فرنسية عَلَمية ؛ لانها لا تعدّ في اللغة المذكورة بين الاعلام الشخصية . لكن ندعو : شارل وفرديناند والبير ، لانها اسماء اعلام في لسانها الأصلي . القصارى ، اننا ننقل ، عادةً ، اعلاماً ، فنستعملها اعلاماً . فهل يا ترى كلمة « فصحي » التي يدعي الرأي البغدادي ان «بشكوال» محرّف عنها هي «اسم عربي النجار» وهل هي اسم علم ؟

ان السعيد الذكر الاب شيخو العلّامة الحريّ ، دون سواه ، ان يعدّ حجة بين ارباب العلم الشرقيين في هذا العصر ، في ما يخص تاريخ العرب قبل الاسلام ، ولاسيما النصارى منهم . ومن جملة الادلة على ذلك كتابه النفيس الموسوم « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » وقد عقد فيه فصلاً ضافياً « في الاعلام النصرانية » فطالعناه بامعان ، فلم نجد فيه احداً قد تسمى « فصحاً او فصحياً .»[1] وحضرة العلّامة الاب لامنس ، مدير هذه المجلة الغراء هو من المبرّزين في ميدان الاستشراق والاستعراب ، لتحقيقه ووقوفه حقّ الوقوف على

---

٨) شيخو : المؤلف السابق ، القسم الثاني ، الفصل الثالث ، ص ٢٢٧ الى ٢٥٤

احوال العرب قبل الاسلام وبعده ؛ فنرجو منه ان يتفضل فيقول لنا هل وقع ، في الاسفار الجمة المطبوعة والمخطوطة التي طالعها ونقّب فيها ، طيلة حياته المباركة ، على احد من العرب تسمى «فصحاً او فصحيًا» ؟ ونسأل العالمين على آداب السريان وتاريخهم واحوال اليهود وآثارهم ، هل يا ترى وجدوا احداً بينهم ، قديماً ام حديثاً ، قد دعي « Peshi او Peshaya او Pesah او Peshi » ؟

٤ ــ يزعم الرأي الزوراني « ان الافرنج نقلوا الكلمة « اي الفصحي » العربية الى لسانهم بعدّة صور ، منها Pascha و Pascua . فنقلت الفاء العربية الى p ، والصاد الى s ، والحاء الى c او ch . ولما نسبوا الى الفصح قالوا Paschalis ، والاسبانيون Pascual الخ » فنقول : ان هذا الرأي لا يدقق في تسمية الامم ولغاتهم . فان الغربيين لم يسمهم « فرنجاً » الا العرب ؛ ولم يجرِ ذلك الا منذ الحروب الصليبية ، ومن باب اطلاق اسم الجزء ، اي الفرنسيين ، على الكلّ . واما قبل ذلك فكانوا معروفين بالرومانيين او اللاتين ثم ان كلمة Pascha لاتينية و Pascua اسبانية . و Pascha هذه قد شرع في استعمالها قروناً عديدة قبل الاسبانية ، اي منذ القرن الثاني ، كما علمت مما تقدم ؛ والاسبانية لم تُدوّن الّا نحو اواسط القرن الثاني عشر .

٥ ــ يقول راي دار السلام ان « النصارى يسمون « بشكوال » وان شئت قل « فصحي » . فنجيب ان كلمة « النصارى » اسم شامل مسيحيّي العالم قاطبةً . لكن النصارى ، من جهة البلاد ، يقسمون الى قسمين كبيرين ، اي شرقيين وغربيين . فنحن نسلم ، كما ثبت ، ان النصارى الغربيين كانوا ولا يزالون يسمون بسكاليس او بسكال او « بشكوال » لكن النصارى الشرقيين لم يستعملوا « فصحي » ، لا اليوم ولا في القديم ، كاسم علم . واما « بسكال » فلم يدرج بينهم الّا في هذا العصر ، اي منذ انتشار المرسلين اللاتين في الشرق . واما في العصور الخالية ، فلا ذكر له بينهم ، على ما نظنّ .

٦ ــ يتساءل راي دار الخلافة « فمن كان يظن اسم ابن بشكوال «معناه» « ابن الفصحي » . فنقول : احسن هذا الرأي بقوله «معناه» اي ترجمته في العربية ؛

فهذا مفهوم . واما ان « بشكوال » تصحيف « فصحي » فهو غير مفهوم ولا معقول ولا مقبول . اذ الحقيقة المفرزة بالادلة الالسنية والتاريخية ، هي ان «بشكوال» اسم علم اسباني ، بموجب لفظه هذا ، وهو في الفرنسية Pascal ، وفي الايطالية Pasquale . وهذه الصورة اقرب الى الاصل اللاتيني Paschalis ، واللاتيني مضارع للصيغة اليونانية Paskhalios . فكل هذه الالفاظ نسبة الى Pascha . واما Pascha اللاتينية — وكذا القول عن πασχα اليونانية — فهي عين اللفظة العبرية Pesah المنقولة الى اليونانية واللاتينية . ولم يقتض لذلك سوى قلب الحاء او الخاء الى كاف ؛ اذ ليس هناك فاء لتقلب p ولا صاد لتقلب s ، لعدم وجود لهما في الكلمة العبرية خلافاً للعربية التي استمدت لفظها من السريانية ، او لخلوها من حرف الپاء ، استعاضت عنها بالفاء .

فانت ترى من هذا كله ان « العربية ليست بصاحبة الفضل على بقية اللغات » « اقل ما يكون في هذه المادة » ، وان الفضل كل الفضل « للعبرية » التي منها نقلت كلمة Pesah الى سائر هذه الالسن .

فالعرب اذن اخذوا ، في العصور الوسطى ، اسم بشكوال ، عن الاندلسيين الاجانب ؛ الا انهم ، بعملهم هذا ، لم يستردوا بضاعة خاصة بهم » لان Pascha ، ذات الصورة اللاتينية التي اضحت Pascua في الاسبانية ، وصيغت منها النسبة Pascual او بشكوال ، ليست « بعربية النجار » بل « عبرية محضاً » وقد تَيَرْنَتت ، فتحنّثت ، وتسرّينت ، ثم تعرّبت في المشرق . واما في المغرب ؛ فَتَلَيْتت ، فتأيطلت ، فتأسبنت ، فتفرْنَسَت ، فتأنكلزت ، الى آخر ما تشاء .

« وعلى هذا المثل قس كل ما جاء من هذا القبيل » في مقالة « فضل العربية على سائر اللغات » من مثل اصل : ايليوس من « هَيْل وحَيْل وعَيْل وأيل » ، والسنار من « سين وماه » ، والحاسن من « حيّ سين » وغيرها . ومن هنا تستدلّ على قيمة مثل هذه الآراء التي تظهر ، الحين بعد الحين ، في بغدادنا ؛ وتتحقق ان من شأن « الالسنية » الاستناد الى براهين حسية منطقية ، تأريخية ، ولا الى ما تولده المخيلات المخصبات .

واما فضل العربية — لا على سائر اللغات او بعضها ، بل على ذاتها — فهو شيء ، ليس من ادّعاء بعض الثُلاة جزافاً بان كثيراً من الكلم الآرية « عربي النجار » وخاطهم بين الالسن السامية والعربية لان كل ما يقال عن العربية فهو سامي ، ولا كل ما ينسب الى بعض اللغات السامية هو عربي — بل ان هذا الفضل ناجم عن خصائص اللغة العدنانية عينها ، وهي كثيرة . منها طريقة الاشتقاق التي تعادلها اي مزيّة من مزايا غيرها من اللغات ؛ وكذا القول في اوزانها القياسية المنطقية ، ووفرة التراكيب المختلفة والمجاز ، وما شاكل ذلك . مما جعلها آلة مرنة بيد اصحابها في جميع اطوارها ؛ وهو ما يضمن لها اليوم الانتعاش والنهوض ، بعد عصور الخمول والقعود . وهو الذي نؤمله بهمة كبار العلماء الباذلين جهدهم في هذا السبيل ، بروح عصري ، وفكر عصري ، واسلوب عصري ؛ ولا من جمود المحافظين المتعصبين المتلهين بعدُ في هذا العصر ، عصر التقدّم والرقي في كل شيء ، بخزعبلات طائفة من النحويين القدماء وتفاهاتهم ، من مثل القول ، حتى في ايامنا هذه ، بانه يجوز في العربية : « قام زيدٌ ، قام زيداً ، قام زيدٍ . »

اجل ! كل شيء جائز عند من لا ذوق لهم ؛ ولا عجب ! لا عجب ! فان الذوق هبة من الباري لا ينعم بها الا على من يشاء !!!